دور الكتب وفائدتها

دار الكتب العربية في دمشق

من المعلوم ان اعمال البشر مرتبطة باعتقاداتهم ارتباطاً محكماً فلا يفعلون الا ما يعتقدون فائدته . والاعتقادات التي ينجم عنها الخير لا تحصل الا بالعلم فهو مصباح سبيل البر والسلاح على الاعداء وبه يبلغ الرفيق منازل الاحرار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة .

ثم ان لتلقيه واسطتين لا ثالثة لهما احداهما تلقيه بالتلقين من الافواه وهذا لا يفيد الا القواعد اللاتي متى رسخت في الاذهان توسع فيها الانسان بمقدار مثابرته على تذكارها والعمل بموجبها وفي الحديث : من عمل بما علم اورثه الله علم ما لم يعلم .

والثانية وهي اوسع دائرة واكثر نفعاً واغزر مادة وهي المطالعة في الكتب التي قيل فيها :

لنا جلساء لا نمل حديثهم ألبّاء مأمونون غيباً ومشهدا

فبقدر توسع الامة وغناها في التأليف وكثرة الكتب تتقدم في الحضارة والتفوق في حسن الاخلاق فيكون ذلك سبباً في قوة شوكتها ونمائها .

هذا وان لنا في الغرب لعبرة لان اهله لعلمهم بان رقي الامم بمعارفها والمعارف لا تتم الا بالكتب اذ هي لقاح الافكار بل مصباحها اخذوا يبذلون النفس والنفيس في تشييد دورها وانعامها بالكتب على اختلاف انواعها ولغاتها واجهدوا انفسهم في تعليم كل لغة من لغات العالم ليقتطفوا ثمرات الكتب المؤلفة في تلك اللغات فلا ترى مملكة بل امارة من بلادهم الا وفيها عدة دور للكتب مكتظة بانواعها ولهم ولع زائد في اللغة العربية التي مازالوا ينقبون عنها في بلادنا يشترونها باغلى الاثمان . ومن العجب ان كثيراً من الكتب العربية ما وصل الينا الا منهم والبعض منها فقد اصله العربي ولم يبق الا ترجمته .

والشاهد على ما ذكرناه من فائدة دور الكتب ما احرزته العرب من الحضارة والعمران في صدر الدولة العباسية حتى غار منها ملوك الديلم وما وراء النهر واتراك

فامتدت الايدي الظالمة الى المدارس واوقافها وكتبها ولا وازع ولا مانع حتى اختلست تلك الجواهر من حرزها الذي لا يحوطه الا الدين . والشاهد مشاهد في دمشق فانه كان فيها لغاية القرن العاشر الهجري ما ينيف عن ثلاثمائة مدرسة متنوعة منها ما هو لاقراء القرآن ومنها ماهو لتدريس الفقه ولكل مذهب مدارس متعددة كان طلبتها لا يتكلفون لشراء كتاب لوفرة الكتب الموقوفة فيها

واصيبت الاندلس باكثر مما اصيبت به دمشق وبقيت مصر محافظة على آثار الحضارة العربية بسبب وجود الجامع الازهر عمره الله الى الابد لكنها لم تخل دور كتبها الوفيرة من عبث ايدي الطامعين فقد كانت مقر الفاطميين والاكراد والاتراك والجراكسة الذين كان يتلو احدهم الآخر ويماثله او يزيد عليه في اقتناء الاجر بتشييد المدارس وشحنها بالكتب المتنوعة فهزت الحمية الخديوية المرحوم اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي فامر بانشاء دار الكتب فانشئت باسم المكتبة الخديوية في قصر درب الجماميز وبجمع الكتب التي في المدارس والمساجد غير كتب الازهر فانها مصونة بداعي الاشتغال بها وذلك في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٨٦ فنقل اليها ما كان على ما ذكرنا واستنسخ ما لم يكن فيها من الكتب النافعة واخذ في شراء النفائس الغريبة ولم تزل الى الآن في نمو وارتقاء حتى صارت تضاهي دور الكتب الغربية انتظاماً ووفرة كتب

هذا وقد كان في دمشق سلف صالح ممن يغار على العلم وارشاد الامة نخص منهم بالذكر الاستاذ الشهير الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله تعالى الذي كان اذ ذاك مفتش معارف ولاية سوريا فشكى ضياع كتب الوقف الى رئيس الجمعية الخيرية الشيخ علاء الدين حفيد العلامة ابن عابدين فاخذا في جمع الكتب الوقفية في مدة ولاية مدحت باشا لسوريا وفي اثناء ذلك فصل عنها واقيم مكانه حمدي باشا وحول عنوان الجمعية الخيرية الى مجلس معارف وناط رياسته بالعلامة المرحوم محمود افندي حمزة مفتي دمشق فقام المشار اليه بالاشتراك مع الشيخ علاء الدين المذكور آنفاً والشيخ سليم العطار والشيخ محمد المنيني وقدموا طلباً بذلك الى الوالي حمدي باشا المذكور في ١٥ شباط سنة ١٢٩٥ يتضمن ان الكتب الموقوفة هي لاستفادة العموم وقد حضرت بايدي المتولين وحرم الناس من مطالعتها فالواجب ان تجمع الكتب والرسائل الموقوفة الكائنة

تحت ايدي المتولين ووضعها في خزانة مخصوصة عمرت وانشئت في تربة الملك الظاهر (بيبرس) في المحل المخصوص المعمر لاجل ذلك لتصير المنفعة عمومية ولا يحرم احد من الاستفادة والمطالعة ويتأسس بذلك دار كتب عمومية فصدر امر الوالي بذلك وان تكون تحت نظارة الافاضل الذين قدموا له الطلب باسم (جمعية المكتبة العمومية) وجمعت هذه الكتب من عشرة محلات: المكتبة العمرية وهي دار كتب عظيمة قديمة اكثر كتبها مصحح بايدي العلماء المشهورين وبعضها بخط مؤلفيها وهي وقف اناس متعددين من اهل الفضل وكان مقرها مدرسة شيخ الاسلام ابن ابي عمر الحنبلي في صالحية دمشق المتوفي سنة ٦٨٢ . ومكتبة عبد الله باشا وهي مجموعة من كتب وقفها والده محمد باشا قبله سنة ١١٩٠ وكان مقرها في مدرسته الا انها اشتهرت نسبتها لابنه المذكور ومكتبة سليمان باشا وهي كتب وقفها المشار اليه سنة ١١٩٦ وكان مقرها في مدرسة باب البريد ومكتبة الملا عثمان الكردي وهي كتب وقفها المذكور وكان مقرها في المدرسة السليمانية ايضاً ومكتبة الخياطين وهي كتب وقفها الوزير اسعد باشا بعد سنة ١١٦٥ وكانت في مدرسة والده الحاج اسمعيل باشا في محلة الخياطين قرب المدرسة النورية المنسوبة لنور الدين الشهيد . ومكتبة مرادية وهي كتب موضوعة في مدرسة الشيخ مراد النقشبندي ومكتبة السميساطية وهي كتب حديثة العهد وقفها بعض اهل الخير كانت موضوعة في المدرسة السميساطية لصيق جامع بني امية من جهة الشمال ومكتبة الياغوشية وهي كتب موضوعة في مدرسة سياوش باشا في محلة الشاغور ومكتبة الاوقاف وهي من دور كتب متفرقة تشتت امرها فوضعت في ديوان الاوقاف حفظاً لها ومكتبة بيت الخطابة وهي كتب كانت موضوعة في حجرة الخطابة من الجامع الاموي ومن كتب اخرى وقفت حديثاً

وعين لها محافظون وخدمة لها نظام مخصوص يقرؤه من زارها وبقيت هكذا على حالها لا يزورها الا القليل لعدم الرغبة في العلوم والمعارف سيما في اثناء الحرب العامة المندفعة

ولما اراد الله انهاض هذه الامة من كبوتها واتى بالحكومة العربية التي تعلم ان دور الكتب من اسباب نهوض الامم سياسةً واخلاقاً واجتماعاً الفت ديوان المعارف